مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM KNOWLEDGE FOUNDATION

كتـــاب في دقـــائق

2018
ديسمبر

ملخصات لكتب عالمية تصدر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

المعرفة وثروة الأمم

قصَّة الاكتشافات الاقتصاديَّة التي خدمت البشريَّة

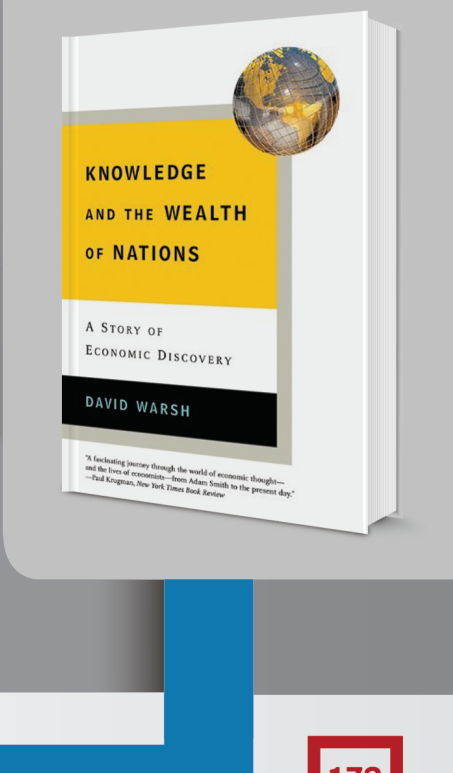

تأليف

ديفيد لويس وارش

173

المبادرات والمشاريع

بالعربي
إحدى مبادرات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

2030 LITERACY CHALLENGE

MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM KNOWLEDGE AWARD

برنامج دبي الدولي للكتابة
Dubai International Program for Writing

في ثوانٍ...

يسرُّنا أن نختم أعداد هذا العام بملخص هذا الكتاب الرائع وهو بعنوان «عادات النجاح: كيف يصل الاستثنائيون إلى القمة» من تأليف «بريندون بوشـارد». فـالأداء الاستثنائـي كما يرى «بوشارد» يتخطى معايير النجاح القياسية على المدى الطويل. فبعد دراسات واسعة وقضاء عِقد من الزمن في قياس أداء الاستثنائيين حول العالم يحدد لنا المؤلف العادات الست الأكثر فاعلية للوصول إلى النجاح والأداء الاستثنائي المستدام. فقد أسفرت واحدة من أكبر الدراسات الاستقصائية عن ست عادات تُمهد لنا الطريق وتساعدنا على النجاح المستدام، تلك العادات الست هي السعي نحو الوضوح، وشحذ الهمة، والالتزام بضرورة تقديم أداء استثنائي، ورفع الإنتاجية، وترك بصمة، وإظهار الشجاعة. وهذا هو كل ما نحتاجه لنقدم أداءً عالياً ونحتفظ بمكاننا على القمة.

ومع اقترابنا من «قمة المعرفة»، التي نرتقي ونرى آفاق المعرفة العالمية في غربها وشرقها كل عام، نقدم لكم مُلخصين لكتابين أساسيين هما: «مزايا التنوُّع: كيف تنجح الفرق العظيمة في اقتصاد المعرفة» تأليف سكوت بيدج، ويستعرض المنافع التي يمكن تحقيقها حين تعمل الفرق العصرية المتنوّعة بعضها مع بعض في بيئة مفعمة بالحماسة والمنافسة والسرعة، لأن القدرة الفردية النسبية لم تعد كافية. كما أن حل المشكلات يتطلَّب جمع الكثير من المعلومات واستخدام مزيج معقَّد من الأدوات، بينما يسهم التنوُّع المعرفي في تحقيق النجاح للمؤسسات عبر فِرَقها الذكية. ويؤكد المؤلف أن التنوُّع لا يتم عشوائياً، لأنَّنا نحتاج إلى فهم الكيفية التي يعمل بها، مع خلق ثقافة تُعزّز التفاعلات المتناغمة بين الخبرات المتعدّدة، والخلفيات التعليمية المتكاملة، والهويَّات المختلفة.

أما الملخص الثاني فيقدم كتاب كارلا أوديل وسندي هيوبرت وعنوانه: «عصر المعرفة: تأثير إدارة المعرفة في مستقبل الأعمال»، إذ تحتاج كل مؤسسة في ظل اقتصاد المعرفة إلى تطوير برنامج فني متكامل يُحوِّل المعرفة الفرديَّة إلى مؤسسيَّة عبر استراتيجيَّة ذكيَّة وملائمة. إدارة المعرفة جُهد منظَّم يحول البيانات إلى معرفة، ويمكنها من النمو وإضافة قيمة حين يوفر المعرفة المناسبة للأشخاص المناسبين في الوقت المناسب، ويساعد الناس على تشارُك المعلومات وتوظيفها في تحسين الأداء المؤسَّسي. ولأنَّ تصميم منظومة جديدة لإدارة المعرفة ليس أمراً سهلاً، يجب البدء بتحديد القيمة المقترحة لبرامج إدارة المعرفة، وتأمين دعم قادة المؤسَّسة لتطوير استراتيجيَّة رسمية تضمن تخصيص جزء من الموارد لذلك البرنامج، ما يتطلَّب إعداد عرض عمل، وتصميم منهجيَّة معرفية تشمل تقييم القدرات التي يتمتَّع بها فريق التطوير، وتحديد الفرص الجديدة ووضع خطط للتوسُّع مستقبلاً.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

ما النموذج؟ وكيف يعمل؟

في عام 1776، وضع «آدم سميث» آراءه في كتاب «ثروة الأمم». ما ميَّز «سميث» عن جميع مؤلّفي كتب الاقتصاد هو قدرته الفائقة على التركيز، فمنذ نشأته وبداياته، حصل «سميث» على قسط وافر من التعليم. كما التحق بجامعة «جلاسجو» وهو في سن الرابعة عشرة، ثم حصل على منحة دراسية في جامعة «أكسفورد» وهو في السابعة عشرة، وأثناء عودته من «أكسفورد» إلى «أدنبره»، دُعي إلى إلقاء سلسلة من الخطب والمحاضرات العامَّة التي دارت حول موضوعات متنوّعة بدأت بالحديث عن البلاغة، ثم تاريخ الفلسفة، وأخيراً عن فلسفة التشريع، وبفضل تلك المحاضرات، صار بإمكان الباحثين والفلاسفة والعلماء تكوين تصوُّر عام ومعلومات مفيدة عن آراء «سميث» وعناصر الشرح والتوضيح وطرح المفاهيم.

يرى «سميث» أنَّ أهمَّ ما نبحث عنه في شرح أي موضوع هو «الفكرة والصلة» التي تربط بين الأحداث التي تبدو غير مترابطة، فهو يعتبر العلم بحثاً دائماً ودؤوباً عن «الروابط الخفية» التي تربط بين الأشياء المتنافرة التي تبدو للوهلة الأولى وكأنَّها متناثرة، وعلينا أن نرى تلك الصلات بدقَّة تشبه دقَّة حركة الآلات، ذلك لأنَّ «هناك أوجه تشابه كثيرة بين المنظومات والآلات»، ومن هنا تتمثَّل براعة الوصول إلى الشرح والطرح في خلق نموذج ذهني، أو «آلة خيالية» ذات قدرة وجدارة أكبر، ما يمكّننا من ربط أسباب الأمور بنتائجها وإزالة الالتباسات التي قد تطال أي نموذج أو قضية.

يرى «سميث» أنَّ القياس العشوائي هو عدوُّ النظرية الواضحة، ويتمثَّل هذا القياس العشوائي في محاولة المفكّرين شرح شيء من خلال علاقته بشيء آخر، فمثلاً نلاحظ أن مؤيّدي نظرية «فيثاغورس» راحوا يشرحون جميع الأشياء مستخدمين خصائص الأرقام؛ ولطالما راح الأطباء يُشبّهون علم وظائف الأعضاء بالجهاز السياسي (يضمُّ الجهاز السياسي جميع

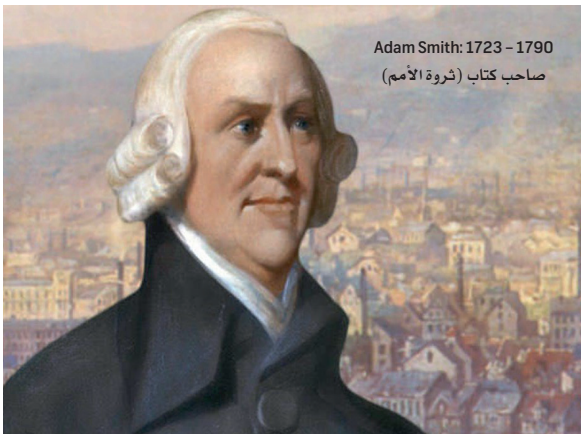

Adam Smith: 1723 – 1790
صاحب كتاب (ثروة الأمم)

الأشخاص في بلد معيَّن ويتمُّ التعامل معهم على أنَّهم مجموعة واحدة، وعادةً ما يستمر التمثيل عن طريق هذا الشرح المجازي أنَّ رأس الحكومة هو رأس الدولة)، وعلى هذا يعلّق «سميث» بقوله إنَّ الشرح الوافي والمفهوم لا بدَّ أن يكون سلساً ومترابطاً، أي أنَّه يخلو من «الفجوات، والثغرات، والتوقُّف، وعدم الترابط»، كما تنساب فيه الأفكار عبر الذهن وفي العقل بتلقائية. يُضاف إلى هذا أن الشرح الوافي كفيلٌ ليس بإقناع المتخصِّصين فحسب، بل والعامة كذلك، وإلا صار لدى الخبراء كثير من الدوافع والحجج والادَّعاءات كي يتظاهروا بمعرفة أكثر مما يعرفونه بالفعل.

كانت محاضرات «سميث» الثلاث الأولى ناجحة للغاية، ما جعل جامعة «جلاسجو» تختار «سميث» في عام 1751 لمنصب أستاذ المنطق، ومن هنا أصبح «سميث» أول خبير اقتصاد أكاديمي في التاريخ، إذ وضع الإطار النظري لهذا المجال، أو لما نسميه اليوم «علم الاقتصاد».

اليد الخفية ومصنع الإبر

اسأل أي خبير اقتصاد حقيقي عن مصدر «ثروة الأمم»، وسيجيبك أنَّه يتمثَّل في «المنافسة»، وإذا طرحت مزيداً من الأسئلة، فستكتشف أنَّ نشر الكتاب واكب اكتشاف «اليد الخفية»، أي يد التنظيم الذاتي لترابط الأسعار والكمّيات التي نطلق عليها اليوم اسم «نظام التسعير»، أو «نظام الأسعار»، غير أنَّ كتاب «ثروة الأمم» يحتوي على معلومة أخرى مهمَّة لطالما أغفلناها، ألا وهي تلك الفكرة التي توضّح العلاقة بين وفورات الحجم والتخصُّص.

ألَّف «سميث» كتاب «ثروة الأمم» بغرض توضيح أسباب تبوُّؤ «إنجلترا» الصدارة في ذلك الزمن. لقد سعى إلى تحديد السياسات التي تحقّق الرخاء وتنشره، لا التي تعوقه وتؤخّره، وبعد مرور مائة عام انشغل «وليام بيتي» بالمعجزة الاقتصاديَّة أو «البلدان المنخفضة» حين كانت «هولندا» و«مملكة الأراضي المنخفضة» دولتين مختلفتين، ما جعلهما تبدوان أكثر رخاءً من «إنجلترا»، ولكن بحلول عام 1776، كانت «إنجلترا» قد تغلَّبت على كل منافسيها وأصبحت أكثر أمم أوروبا ثراءً وأسرعها نمواً.

لقد أوضح «سميث» فرضيَّته في أول جملة وردت في كتابه، إذ قال: «إنَّ أكبر تطوُّر في القدرات الإنتاجيَّة للعمالة، والجزء الأكبر من مهاراتهم وبراعتهم وفطنتهم في توجيه هذه وتلك، أو تطبيقها، يُعزى إلى تقسيم العمل»، ومن هنا اعتبر التخصُّص أحد أسس ثروة الأمم التي تريد أن تتقدَّم.

كان تقسيم العمل شائعاً في «إنجلترا»، غير أنَّه لم يكن واضحاً تماماً، ففي بعض المؤسَّسات الكبرى والواسعة الانتشار، كان المساهمون في المنتج النهائي منتشرين في جميع أنحاء العالم، ومن هنا استهلَّ «سميث» كتابه بأحد أهم أمثلة التاريخ، ألا وهو زيارة إلى مصنع إبر حديث، حيث يمكن متابعة العملية برمَّتها في مكان واحد، فالعامل الذي لم يتعلَّم تصنيع الإبر ولم يتلقَّ تدريباً على تصنيعها سيصبح محظوظاً إذا أنتج إبرة واحدة في اليوم، ولكنَّ «سميث» يقول إنَّه في المصانع الحديثة، يستطيع عشرة رجال أو خمسة عشر رجلاً أن يصنعوا كميات كبيرة من الإبر، أي ما يعادل اثني عشر رطلاً في اليوم، إذ نجد رجلاً يجذب السلك، وآخر يفرده، وثالثاً يقطعه، ورابعاً يثقبه، وخامساً يصقله من أعلى حتى يعطيه رأساً، وتقتضي صناعة رأس الإبرة عمليتين أو ثلاث عمليات مميَّزة، فالتصنيع عملية، والصقل عملية أخرى، بل ويعدُّ تشبيك الإبر في الورق في حد ذاته بمثابة عمل وحرفة، ويتكوَّن تصنيع الإبرة من 15 عملية مختلفة، وعليه يستطيع عشرة رجال صناعة 48 ألف إبرة في اليوم، أو نحو 5000 مجموعة من الإبر.

يقدّم «سميث» اقتراحاً عن الآلية التي تحكم تقسيم العمل، والمتمثّلة في الرغبة بالبيع والشراء، أي أنَّ رغبة البشر في تحسين أحوالهم ظاهرة إنسانية فطرية يعرفها كل العالم، وهي القوَّة التي تدفع بهذا النظام قُدُماً، فكيف نبيع مليون إبرة؟ إنَّ توزيع العمل مقيَّدٌ باتساع السوق، وهذا يعني أنَّ درجة التخصُّص تعتمد على كمّ المنتج الذي تستطيع بيعه، وعلى وفورات حجم عملك، إذ عليك أولاً تغطية تكاليفك الثابتة (أياً كانت)، على أن يتبقَّى لك شيء من نتائج إنتاجك مهما كان قليلاً، وهذا هو ما نسميه «الربح».

ومن الواضح أنَّ المنافسة – بطبيعة الحال– هي ما يجعل النظام يعمل، فلكي يعمل النظام بسلاسة، يجب أن يكون الجميع أحراراً في دخول السوق أو الخروج منه، وفي تغيير تجارتهم كما يحلو لهم، وهو ما يطلق عليه «سميث» مفهوم «الحرية الكاملة»، ويواصل «سميث» حديثه قائلاً: «أينما تتوافر حرية المنافسة، يجبر تزاحم المتنافسين جميع الذين يريدون دفع بعضهم بعضاً خارج العمل على محاولة إنجاز عملهم بدرجة ما من الدقَّة والإتقان»، وهذا ما نسميه اليوم «الجودة». حينئذٍ سيسعى كل الناس لبيع كل ما يمكنهم بيعه بأعلى سعر يسمح به السوق، والشراء بأقل سعر ممكن أيضاً، لكن كل هذا سيتوازن ويتعادل بمرور الوقت.

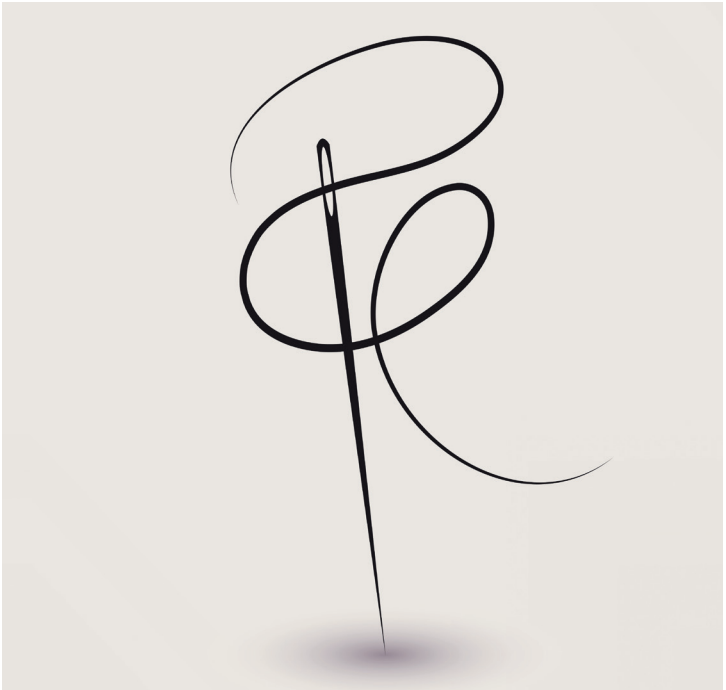

كيف حصل علم «الاقتصاد» على هذا الاسم؟

ظهر كتاب «ثروة الأمم» في عام 1776، أي في مرحلة توالي الأحداث التي أدَّت إلى ما نطلق عليه الآن اسم «الثورة الصناعية». لقد استفاض «سميث» في الكتابة عن التوتُّر الذي كان سيؤدّي إلى حرب الاستقلال الأمريكية؛ بيد أنَّه لم يكن لديه ما يقوله عن سلسلة الاختراعات التي بدأت في تحويل حياة الشعب الإنجليزي، ما جعل مؤرّخين اقتصاديّين كثيرين يستنتجون أنَّه رغم تركيز «سميث» على حالة ودراسة مصنع الإبر، فقد كان جاهلاً بأسباب التصنيع ونتائجه.

ثمَّ بزغ نجم «ديفيد ريكاردو» و«تي آر مالثوس» على خلفية الحرب والثورات. قام «مالثوس» أولاً بنشر بحث بعيد كل البعد في أسلوبه عن بساطة الكتابة الصحفية. كان بحثه يتمحور حول جدول يقارن فيه معدَّلات النمو الحسابية بنظيراتها الهندسية، ثم صار هذا البحث أساساً لباقي الأبحاث، ولكي يجعل منطق البحث مؤكَّداً، وضع «مالثوس» فرضيَّتين قويَّتين، ألا وهما «أهمية العاطفة بين الجنسين»، و«بقاء الخصوبة على حالتها الحاليَّة» بغضّ النظر عن أيّ تغيُّر يطرأ على العوامل والمدخلات الأخرى، وبناءً على نموذجه ذاك، بدا له أنَّ «قوَّة السكان» ستتغلَّب سريعاً على «قدرة الأرض على إنتاج ما يقتات به الناس»، ولكن مثل هذه النظرية لم تكن مشروطة، أو قابلة للنقض، أو حتى الإضافة، ورغم تعديله لبعض تلك الآراء في السنوات التالية، لم يفقد «مالثوس» رفضه لآراء من كانوا يرون أنَّ الظروف الاجتماعية قابلة للتحسين، ما يجعل دراسة الاقتصاد أمراً صعباً وسوداوياً ولا يدعو إلى التفاؤل.

وبنفس الطريقة، تطرَّق «ديفيد ريكاردو» لنفس الموضوع في نفس الوقت، ولكن من زاوية أخرى بالسياسات البنكية والتمويل الحربي. رأى «ريكاردو» أنَّ المشكلة الأساسية في العالم تتمحور حتماً حول الصراع الدائر بين ثلاث طبقات اقتصاديَّة حدَّدها «آدم سميث»، وهي الأرض والعمالة ورأس المال، فلم يكن المزارعون ليصبحوا أثرياء طالما استُزرعت أرضٌ أسوأ حالاً، إذ كانوا سيدفعون كل أرباحهم كأجور للعمَّال الذين سيقومون، بدورهم، بإنفاق كل ما يتقاضونه على الطعام، ولهذا لن يغتني سوى مُلاك الأراضي، وسينتهي الأمر بالمجتمع إلى الركود، وهو أمر كئيب أيضاً.

كان «ريكاردو» على علم بوجود طبقة جديدة ناهضة من الرأسماليين الصناعيين، فقد لاحظ أنَّهم يتصارعون على النفوذ مع ملاك الأراضي والعمال، لكنَّه صار مقتنعاً أنَّ التصنيع سيصبح ظاهرة قصيرة الأمد وغير قابلة للاستمرار، ناهيك عن البقاء. كان على معدَّل الربح في القطاعات الصناعية أن يتبع معدَّل الربح في الزراعة، وكانت الثورة الوليدة في إنتاج البضائع الصناعية ستخبو لأنَّ أحداً لم يرغب في الاستثمار في منتجات بغير سوق، وسيتوقَّف التراكم ونمو الثروات، وستُعرف هذه الحالة التي يصل فيها الإنتاج الصناعي إلى قمَّته والتطوُّر الاقتصادي إلى التوقُّف بما نسميه «الحالة المستقرَّة»، ورأى «ريكاردو» أنَّه لا يمكن تجنُّب هذه الحالة، ولكن يمكن تأجيلها فحسب، وهذا أمر كئيب ومثير للتشاؤم كذلك.

النهر الجوفي

لم يقتنع كثيرون بفكرة أنَّ النقص الدائم والعوَز والتفكير بالندرة قبل التفكير بالوفرة هو مصير البشريَّة في بدايات القرن التاسع عشر، وراح بعض خبراء الاقتصاد البارزين يعملون على نظريَّة مصنع الإبر، غير أنَّهم لم يحقّقوا نجاحاً ملحوظاً في رفع شعار التخصُّص ونمو المعرفة كمحورين أساسيين للاقتصاد. لقد أصبح اقتصاد «مصنع الإبر»، بحسب عبارة «كينيث أرو» بعد سنوات عدة، بمثابة «نهر جوفي» لا يبرز على السطح إلا بعد عقود قليلة.

وسرعان ما ظهر صحافي وكاتب آخر متطرّف على الساحة أصبح فيلسوفاً اقتصادياً فيما بعد، ألا وهو «كارل ماركس». لقد كان «ماركس» مقتنعاً تماماً بفكرة «ريكاردو» المتمثّلة في الصراع ثلاثي الأقطاب على الصدارة، وتبنَّى «ماركس» فكرة الفقر الاقتصادي؛ لكنَّه أدخل عليها بعض التعديلات، وإذ تأمَّل «كارل ماركس» التوجُّهات الاستعمارية، استبدل بمصطلح «عوامل الإنتاج» مفهوماً آخر هو مصطلح «الطبقات»، وبدلاً من استخدام «الأرض» صار هناك ملاك للأرض، وأرستقراطيون، وإقطاع، وحلَّت «البرجوازية» أو (الطبقة المتوسّطة) محلَّ «رأس المال»، وجادل «ماركس» أنَّ الطبقات الوافدة ستحلُّ محلَّ الطبقة الأرستقراطية من خلال الثورة الرأسمالية الخفية التي يمكن تتبُّعها في أحداث جرت منذ قرنين أو ثلاثة، وبدلاً من الحديث عن «العمالة» وقوى الإنتاج، تطرَّف ماركس وراح يركّز على «الطبقة العاملة» البائسة كما كان يراها.

أصبحت التكنولوجيا هي نزعة الطبقة الرأسمالية النامية، وكانت الطبقة المتوسّطة تبتزُّ وتحظى بكل الأرباح الممكنة من النظام الحالي، إذ كان أعضاؤها مفطورين نفسياً لمثل هذا العمل، وفي النهاية كانت الطبقة المتوسّطة، لا مُلاك الأراضي، هي التي ستعمل وتحصل فقط على الفُتات، ولكن كانت الطبقة العاملة ستصعد بعد ذلك وتقلب الأحوال رأساً على عقب، وكان أعضاؤها سيصادرون «وسائل الإنتاج» من خلال عدم الاستقرار الذي ستشهده مختلف الدول.

ثمَّ جاء خبير الاقتصاد الإنجليزي «جون ستيوارت ميل» فلم يتجاهل التقدُّم التقني تماماً، غير أنَّه لم يحاول شرحه أيضاً ولو بطريقة بعيدة عن علم الاقتصاد كما كان يراه. لقد افترض وبكل بساطة أنَّ الأمور ستستمر هكذا لمدَّة أطول؛ وكتب في هذا يقول: «حين يتعلَّق

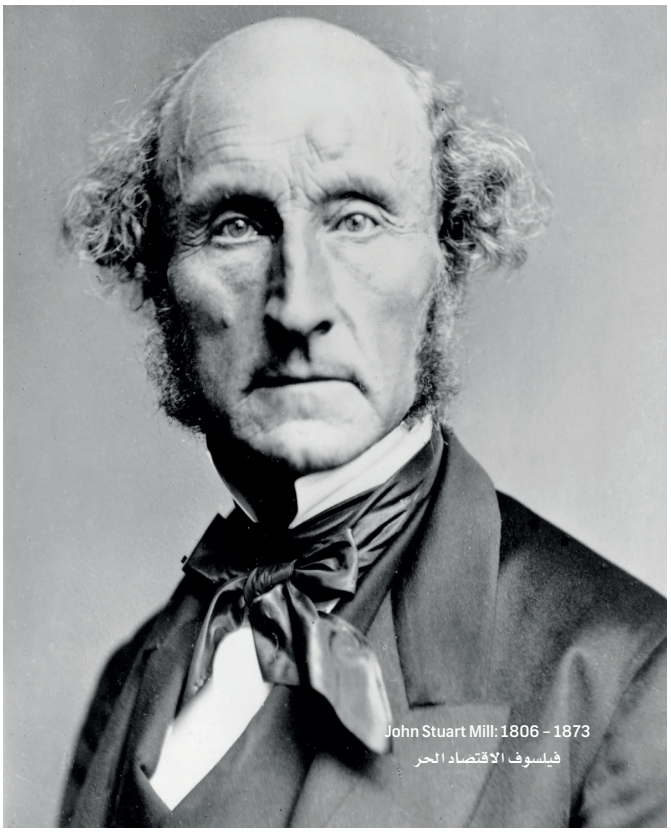

John Stuart Mill: 1806 - 1873
فيلسوف الاقتصاد الحر

الأمر بتغيير الأحوال الاقتصاديَّة للأمم لتتحوَّل إلى معرفة ملموسة، أو مواد ومنتجات وآلات، فإنَّ هذا سيعود إلى العلوم الطبيعية والفنون القائمة على أساسها. أمَّا الاقتصاد فهو معنيٌّ بالأسباب النفسية والمؤسَّسية للنمو فحسب»، ولم يكن تقسيم العمل قد اختفى تماماً في ذلك الحين، بل أضحى قسماً واحداً أو فكرة شاملة تمَّ التعارف على وصفها بالـ«مبدأ الأكثر رسوخاً» أو مبدأ «التعاون». يحدث التعاون حين يساعد العاملون بعضهم بعضاً على أداء مهامّهم، سواء أكانت بسيطة أم معقَّدة، وبدلاً من التخصُّص، أصبح هناك «صندوق أسود» أطلق عليه «جون ستيوارت ميل» اسم «الإنتاجية» أو (القدرة على الإنتاج). كان «ميل» يرى أنَّ الأمور ستصبح على ما يرام طالما زادت القدرة على الإنتاج، ومن هنا أصبح نمو المعرفة التقنية قوَّة اقتصاديَّة كاسحة؛ بينما أضحت القدرة على الإنتاج قوَّة خارجية لها أصولها وقواها الدافعة.

تأثيرات الامتدادات والمنافع الاقتصاديَّة

بحلول عام 1890، صارت «إنجلترا» تشبه إلى حدٍّ ما تلك التي كانت تترنَّح وهي على شفا خوض حروبها مع «نابليون» قبل خمس وسبعين سنة. لقد تمثَّلت المفاجأة الكبرى في بزوغ طبقة وسطى كبيرة، ولكن من المؤكَّد أنَّ أحياء بأكملها في «لندن» كانت تعيش في فقر، بيد أنَّه كان فقراً من نوع مختلف، فبفضل الصناعات الجديدة، كان الفقراء يتمتَّعون بمزيد من المساكن والدفء والنور والطعام والملابس، وهذه هي الظاهرة التي نطلق عليها اليوم مصطلح «النمو الاقتصادي».

لقد راح أحد خبراء الاقتصاد يشرح كيف حدث التصنيع الذي بدأ في القرن الماضي. كان هذا الخبير هو «ألفريد مارشال» أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة «كامبريدج» حتى أنَّ نجاحه أثار الدهشة، ففي شرحه كيف يتعايش التخصُّص مع المنافسة في العالم الحديث، أعاد «مارشال» توجيه رؤية «آدم سميث» الثنائية بشكل بارع جعل الحدَّ الفاصل بين الأمرين (المنافسة والتخصُّص) غير مرئي تماماً، ولم يكن الأمر يتطلَّب سوى حيلة بسيطة، فنحن لا نستطيع أن نفهم ما حدث لعلم الاقتصاد في القرن العشرين من دون أن نعرف شيئاً ولو قليلاً عن زيادة العائد الخارجي أو بعبارة أخرى: عن العوامل الخارجية، فسرعان ما أعطي اختراع «مارشال» اسماً غير رسمي.

فهل يعتمد السعر على تكاليف الإنتاج، أم على رغبة الشخص الذي يدفعه؟ قال «مارشال» إنَّ الإجابة الصحيحة هي أنَّه يعتمد على كلتيهما، فالعرض والطلب، والإنتاج والاستهلاك، والمنافع المكتسبة وتكاليف الإنتاج كلها مهمَّة بدرجات مختلفة وفي أوقات مختلفة. لقد تبنَّى «مارشال» استراتيجيَّة الحل الوسط التي أطلق عليها اسم «التوازن الجزئي»، فالسوق يشبه الآلة الحاسبة العملاقة، إذ يعطي رأس المال والعمالة نصيباً متساوياً من الأهمية بحيث يعتمد كلٌّ منهما على الآخر اعتماداً متبادلاً وبشكل متساوٍ، ومن شأن الاتحادات الاحتكارية أن تُعزّز أثر هذا الاعتماد.

للتعامل مع العائدات، رأى «مارشال» أنَّه يجب أن يكون هناك مصدران لتخفيض التكاليف، ونوعان من العائد المرتفع؛ يرتبط كلاهما بوفرة الإنتاج، أي بحجم السوق. كانت الاقتصادات الداخلية (الاقتصادات الخاصة بمؤسَّسة بعينها) هي اقتصادات ظاهرة أو كحالة مصنع الإبر المعروفة، أمَّا الاقتصادات الخارجية، فكانت تعتمد على التطوُّر العام للصناعة ككل، وتشمل وفورات الحجم توزيع تكاليف بعض الخدمات الأساسية المطلوبة في التصنيع وتكاليف رأس المال الثابتة على الإنتاج الكلي، ما يؤدّي إلى زيادة العائد.

ولضمان الحفاظ على المنافسة في النظام الاقتصادي كله، أدخل «مارشال» المنافع التي يمكن توفيرها للجميع دون مقابل، أي العائد الخارجي. يأتي هذا العائد من حجم الصناعة الذي يُشار إليه ويوصف بأنَّه «تأثير الجيرة»، وسرعان ما أشير إلى هذه العوامل الخارجية على أنَّها «تأثيرات امتداد» من دون أن تفقد معناها، فلم تكن

تأثيرات الامتداد هي النفقات المعلَّقة للنشاط الاقتصادي، ولم يكن مطلوباً أن يتمَّ تأييد هذه النفقات في حسابات الإنتاجية الحدّية، فهي لم تكن مُدخلات، ولم تتطلَّب ضمانات، ولم تلعب أي دور في شكل وترتيب السعر، ومن هنا حافظت تأثيرات الامتداد على نظرية «مارشال» التي اعتبرها كثيرون أداةً فعالة في التوفيق بين زيادة العائد وفرضية منافسة اليد الخفية، مع جعل الحسابات مضبوطة ومتوازنة.

الكينزية والحركة الاقتصاديَّة الحديثة

بحلول عام 1945، أي بالتزامن تماماً مع نهاية الحرب العالمية الثانية، راح علم الاقتصاد يزدهر مرة أخرى، وكانت أمريكا هذه المرة مركز هذا الازدهار. لقد حدث الكساد الكبير، وظهر «جون مينارد كينز»، ولذا فإنَّ قصَّتنا مع هذه المرحلة تتعلَّق بالظاهرة أو «الكينزية» نسبة إلى «كينز». اكتشف «كينز» الاقتصاد الجمعي أو الجماعي. لقد كان العالم غريباً، إذ لم يقابل العرض بالطلب بالضرورة وفي كل الأحوال، ولم يكن الادخار جيداً بالضرورة، كما لم يكن الاقتراض سيئاً بالضرورة أيضاً، ففي عشرينيات وبداية ثلاثينيات القرن الماضي، جاءت موجة هائلة من التفكير العلمي غمرت الاقتصاد التقني، رافعةً طموحات الاقتصاد وواضعة أدوات جديدةً بين يديه، ويمكننا أن نطلق على هذا التحوُّل اسم «البرنامج الحديث»، وهو قرار مشترك يقضي بإزاحة التباس الفهم الشفوي أو الدارج واستبدال مناهج أكثر دقة به.

أراد بعض المفكّرين أن يدمجوا التفكير الإحصائي في النظرية الاقتصاديَّة بغرض تحليل البيانات الحقيقية، بينما اهتمَّ بعضهم الآخر بمشكلات التخطيط، في الوقت نفسه قرَّرت فئة أخرى أن تضع برنامجاً شكلياً لتحليل التفاعلات البشريَّة رياضياً، بدءاً ببديهيات جذرية، وتصوَّرت فئة أخرى علم السلوك الاستراتيجي الذي صار يعرف فيما بعد بالاقتصاد السلوكي، لكنَّ السمة المشتركة لهذه المسائل المعقَّدة تمثَّلت في تفضيل المناهج الرياضية والمنطق الشكلي، فقد بزغت الحركة الحديثة لتمييز الاقتصاد التطبيقي عن الاقتصاد التقليدي الذي اعتمد على الأبحاث النظرية فقط.

لقد اشترك التجديديون في قناعة واحدة ممثَّلة في أنَّه رغم كون الفصل بين الاقتصاد الجمعي والاقتصاد الكلي مفيداً في بداية الأمر، لم يعد استمراره مقبولاً، وبعبارة أخرى: كان على علم إدارة الأعمال الحديث أن يضع أسساً لفهم ظواهر الاقتصاد الجمعي مثل إخفاق الأسعار في مواكبة الظروف المتغيّرة من خلال شرح السلوك الاقتصادي الجزئي للأفراد، إذ كان يتوجَّب على علم الاقتصاد تقديم تقرير موحَّد عن السلوك الاقتصادي من القاع إلى القمَّة كي يصبح مُقنعاً.

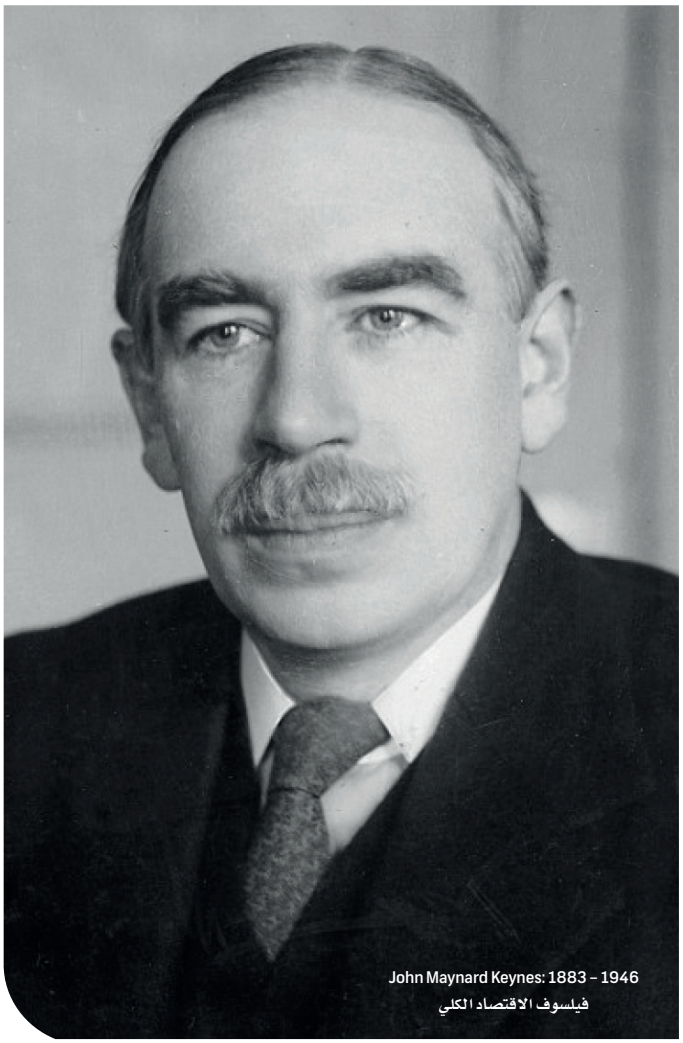

John Maynard Keynes: 1883 - 1946
فيلسوف الاقتصاد الكلي

ثمَّ جاء «إدوارد تشامبرلين» الذي بدا مستوعباً لمسألة النمو الاقتصادي أكثر من غيره من علماء الاقتصاد. أدرك «تشامبرلين» أنَّ أي بائع يتمكَّن من جذب السوق والعملاء إلى منتجاته (من خلال الترويج والتسويق الناجح) يستطيع أن يبيع، لا بسعر السوق الذي يغطّي التكاليف الحدّية للإنتاج، بل أن يبيع أيَّة كمية من المنتجات بأي سعر يمنحه أكبر ربح، فإذا ما شعر العملاء أنَّهم يريدون منتجاً بعينه، فسيدفعون أكثر، ويعدُّ التمييز الناجح للمنتجات- القائم على الخصائص، والعلامة التجارية، والإعلان، والمكان- جوهر التسويق الناجح.

نموذج المتروكات

بقي لغزٌ واحدٌ في الاقتصاد التقني في أوائل خمسينيات القرن الماضي، فقد صارت المؤسَّسات أكبر؛ وبدت المنافسة أقل حدَّة، ومع ذلك كان الاقتصاد ينمو بشكل أسرع ممَّا كان عليه من قبل، فكيف تحوَّل تقلُّص المُدَّخرات إلى نمو اقتصادي؟ وماذا حدث لما كان يُفترض أنَّه المنطق الحتمي لتناقص العوائد؟ لقد كان هناك مبدأ جديد يوشك على البزوغ؛ ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يُطلق عليه اسم «نموذج المتروكات»، وها هو «روبرت سولو» يدخل الساحة.

يعدُّ ابتكار أو فكر «سولو» نموذجاً إنتاجياً يقوم على التبادل ومن أهم إسهاماته. استبدل «سولو» بمبدأ نسبة الاستثمار (رأس المال) إلى النمو، مبدأ آخر جديداً نسبياً ممثَّلاً في دالَّة إنتاجية متغيّرة ذات مزايا مضاعفة. لقد سمح هذا المبدأ للمنتجين بالتحرُّك والتقدُّم إلى الأمام وإلى الخلف، مستخدمين رأس المال حين تكون العمالة مُكلّفة والعكس بالعكس، ومن هنا لم يعد النموذج يمثّل مشكلة خطيرة، كما أفسحت الآلية الجديدة (التنقُّل إلى الأمام والخلف) المجال لدخول متغيّر جديد على النموذج، ألا وهو «المعطيات» التي تصف معدَّلات التغيُّرات التكنولوجية.

افترض «سولو» وجود منافسة مثالية، ما يخدم نموذجه، بحيث تُعاد المنتجات الحدّية لرأس المال والعُمَّال، وإذا ما تغيَّر أحدهما من تلقاء نفسه، فستتناقص العوائد، ويعدُّ نمو الإنتاجية أو الدخل دالة تعبّر عن تراكم العمالة مضروبة في ثابت عشوائي يمثّل نمو المعرفة، وتُقاس معدَّلات حدوث التقدُّم التقني من خلال افتراض أنَّ المعرفة ستزيد زيادة ثابتة بمرور الوقت، وعاماً تلو الآخر، وقد حدث هذا بالفعل، وما زال يحدث بمتواليات مضطَّردة.

لكن نموذج «سولو» افترض ضمنياً أنَّ المدخرات ليست مهمَّة في النمو الاقتصادي، وهو أمرٌ غريب، إذ يشير إلى أنَّ تأثير رأس المال لكل عامل- مثل مضاعفة المدَّخرات بواسطة زيادة الضرائب- على معدَّل النمو سيصبح مؤقَّتاً، ولكن متى سيصبح مؤقَّتاً؟ خلال سنوات أم خلال عقود؟ ولكنَّ هذا لم يكن مهماً، ففي النهاية ستؤدّي كل هذه الإجراءات إلى تناقص العوائد، إذ ارتفعت أجور العاملين بالنسبة إلى تكلفة الآلات. وعليه فلن تتمكَّن الأمم من رفع معدَّلات نموّها بنفس النسبة، فبإمكان النمو السكاني ومعدَّل التغيُّر التقني فحسب أن يفعلا ذلك.

وفي عام 1951، استُخدِمت النظرية والتحليل التقريبي في تحديد متى يكون للمعادلات التي تصف الاقتصاد حلاً، ما أوجد حلاً لأحد أصعب الألغاز في علم الاقتصاد الحديث، وبناءً عليه تحوَّلت المعادلات إلى مُنحنيات وإلى فراغات بدلاً من نقاط على خطوط، وتحوَّلت الرسوم الهندسية البيانية التي تصف العرض والطلب إلى حدود لإمكانية الإنتاج (منحنيات إمكانية الإنتاج).

اتجاهات جديدة

بحلول عام 1978، ابتكر «بول كروجمان» خريج معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا نموذجاً للمنتجات المميَّزة. لقد شرح كيف يمكن، لا لمؤسَّسة فحسب، بل لأمَّة بأسرها أن تحتفظ بميزات معيَّنة، وأن تُبعِد المنافسين. بيَّن «كروجمان» كيف يتحقَّق التعايش بين زيادة العوائد والتوازن العام، فإذا ما تقدَّمت دولة أو منطقة معيَّنة في الإنتاج الشامل لأحد المنتجات الراقية الذي لا يوجد له بديل، فإنَّها تستطيع الاحتفاظ بهذا التقدُّم، وذلك لأنَّ التخصُّص سيقلّل تكاليف الوحدة (أي وحدة المنتج)، وسيتعذَّر على الآخرين اقتحام هذه الدائرة.

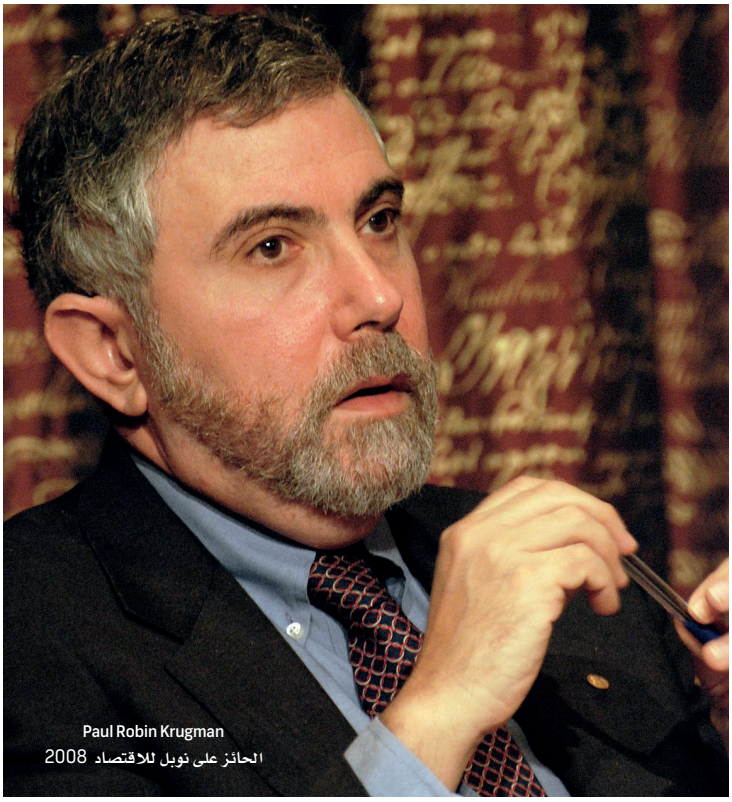

Paul Robin Krugman
الحائز على نوبل للاقتصاد 2008

يشير هذا إلى أنَّ الاعتماد على الأسواق ليس ضرورياً كي تسير الأمور على ما يرام، كما كان يرى (تشامبرلين)، إذ قد يزيد توتُّر الأسواق بمرور الوقت، بدلاً من العودة إلى حالتها «الطبيعية»، وبلغة النظريات، قد تكون هناك أشكال عدة للتوازن، وكانت هذه نتيجة ثورية للغاية لأنَّها قلَّلت من شأن نظريات الرخاء وأشارت ضمناً إلى وجود دور تلعبه الحكومات، فلم يعد مبدأ الاختلافات الجغرافية، أو الميزة النسبية هو الشيء الوحيد الذي يوضّح أطر التخصُّص العالمية، وفي بعض الأحيان يكون التاريخ نفسه، بغضّ النظر عن أي بلد بدأ بداية جيدة، هو السبب.

وقبل مرور وقت طويل، وضع «بول رومر» نموذجاً أكثر قدرة على وصف التخصُّص، أي زيادة تقسيم العمل بأسلوب عام. يطلق على هذا النموذج اسم «اقتصاد التجديد» الذي يعتمد على توفير منتجات جديدة كي يعمل، غير أنَّ المنتجات القديمة لم تختفِ تماماً؛ وكان مقياس الدولة هو عدد سكَّانها. هذا يعني أنَّ أمةً كبيرة مثل الصين يجب أن تنمو بشكل أسرع من دولة أخرى ذات اقتصاد صغير ومغلق. تمثَّلت النقطة الأساسية في أن التخصُّص، أي المنتجات الجديدة، وما يستتبعه من زيادة في العوائد، هو أساس زيادة الإنتاج.

التغيُّر التقني النابع من الداخل

بحلول عام 1988، نشر «رومر» ورقة بحثية يؤكّد فيها أنَّ تراكم المعرفة أهم من تراكم العوامل المادية، وقد أدَّت هذه الفكرة إلى فوزه بجائزة «نوبل» للاقتصاد بعد ثلاثين عاماً، فلم تزل المواد الخام الأساسية التي تُخلط لإعطاء المنتج المطلوب كما هي، لكنَّ وسيلة خلط هذه المواد أصبحت أكثر تعقيداً في السنوات الأخيرة. لم يكن «رومر» قد استخدم مصطلح المعرفة «التي يمكن استخدامها مرات عديدة دون زيادة في التكاليف». لكنَّه فرق بين مصطلح «المعرفة التلقائية التي لا تتطلَّب تفكيراً» (أي أنَّ رأس المال البشري لا يعيش أطول من الفرد) ومصطلح «المعرفة التي تتطلَّب تفكيراً» (أي أنَّ رأس المال البشري يعيش أطول من الفرد). لقد تطوَّرت هذه المصطلحات تدريجياً، وتمَّ ربط الثروات المستخدمة مرات عديدة والثروات غير المستخدمة مرات عديدة بالأشياء المادية والأفكار غير المادية، ثمَّ اختزالها في كنايات عن الذرَّات والفتات.

لقد جعل نموذج «رومر» الأخير المتعلّق بالنمو من خلال التخصُّص، السكان أساس النمو. عندئذ صار «رومر» حريصاً على الروابط بين رأس المال البشري المتدرّب تدريباً متخصِّصاً ونمو المعرفة، ففي جميع الأحوال لا تؤدي العمالة قليلة الخبرة مهام البحث والتطوير، فمن يقوم بذلك هم المهندسون، والعلماء، والعمال الماهرون، ثم أوضح نموذج الوفرة buffalo model سبب كون السكان مقياساً

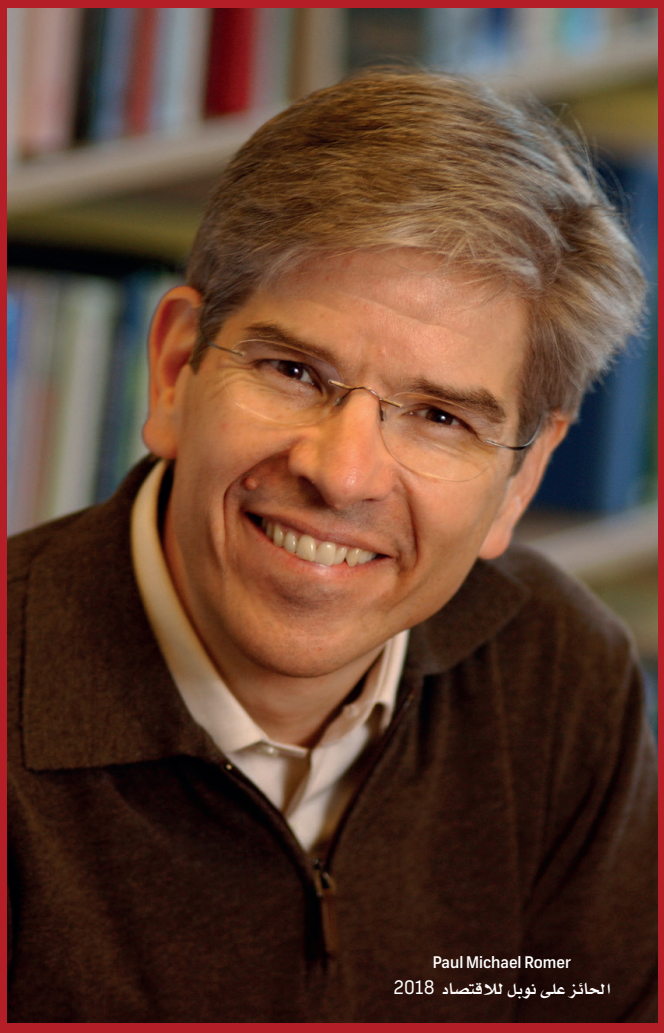

Paul Michael Romer
الحائز على نوبل للاقتصاد 2018

غير صحيح للحجم، والأهم هو أنَّ هذا النموذج بيَّن كيف أنه من خلال فتح الأسواق أمام المعرفة الجديدة، تؤثّر سياسة التجارة لا في الرخاء فحسب، بل وفي معدَّل النمو نفسه، إذ يختلف اقتصاد ابتكار الأفكار عن اقتصاد صناعة الأشياء، لأنَّ أي عدد من الناس يستطيع نقل الأفكار واستخدامها دون تكاليف، بدءاً من الملكية الفكرية ووصولاً إلى البحث الأساسي.

ومن هنا أصبحت الابتكارات، أي مجموعات «المعارف» المتنوعة التي بزغت ورواد الأعمال الذين استخدموها، أساس النمو. كان تجميع المواد القديمة بطرق جديدة، وما يتطلَّب رأسَ مال بشرياً إضافياً (في شكل تدريب متزايد) ومزيداً من رأس المال المادي هو شيء حقيقي، لكنَّ تكاليف العثور على مجموعات جديدة من المعارف كانت الشيء المثير للاهتمام، ومن هنا راح الناس يبتكرون معارفَ جديدة، آملين في تحقيق الربح، ثمَّ يُخفون بعض خصائصها، أو يسجّلون براءتها، أو يستخدمون ميزة المعرفة الجديدة كي يواصلوا السعي ويبتكروا مزيداً من المعرفة.

ترتَّبت النتيجة الثانية للنموذج على النتيجة الأولى؛ وكانت هذه النتيجة مرتبطةً بانتشار المنافسة الاحتكارية، وكان «رومر» يرى بوضوح أنَّ وجود الحقوق المتعلّقة بالملكية الفكرية، والحقوق المتعلّقة بأسرار التجارة والمهارة، تعني انتشار المنافسة الاحتكارية في الاقتصاد كله، وتعني وضع أسعار وعلامات تجارية على جميع المنتجات بدءاً بالكتب، ومروراً برقائق الذرة، والمطاحن، والمحار بغية تمييزها، وهنا أصبح مبدأ التكاليف الثابتة رابطاً مهماً. لقد احتفظت نماذج النمو الأخرى في نموذج الوفرة بسلوك عدم تأثير المشترين أو البائعين في السعر، أي المنافسة المثالية.

اقتصاد المعرفة

هكذا نشأ الاقتصاد الجديد الذي نعرفه اليوم ونعشقه بسبب اسمه الإيجابي المتعلّق بضرورة أن يعرف الإنسان أكثر، ألا وهو اقتصاد المعرفة، فما الذي تغيَّر نتيجة ذلك؟

يبدو أنَّ أموراً كثيرة لم تتغيَّر في النظرية الاقتصاديَّة، أو على الأقل أنَّ التغيير لم يحدث بعد. التغيُّرات المهمة بالفعل هي التي طرأت على العالم الذي وقعت فيه والممثَّلة في صعود الاكتشافات والابتكار، وابتعاد الدولة عن السيطرة على الاقتصاد وإدارته، وفتح الأسواق العالمية. لقد لحق علم الاقتصاد بهذه التطوُّرات في الوقت المناسب، غير أنَّه لا يزال هناك جهد سيُبذل في استيعاب تلك التطوُّرات والعمل طبقاً لها.

لقد أصبح الاقتصاد أكثر إثارة للاهتمام، وباتت تحدّياته تنتظرنا كي نستكشف أسرار ثروة الأمم أو المهارات التي أطلق عليها «آدم سميث» اسم «العواطف الأخلاقية»، أي ما نعتبره إنسانياً في طبيعة الإنسان.

كتب مشابهة:

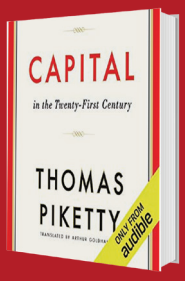

Capital in the Twenty-First Century.

By Thomas Piketty. 2017.

Knowledge, Class, and Economics
Economics as Social Theory.

By Theodore Burczak and others. 2017.

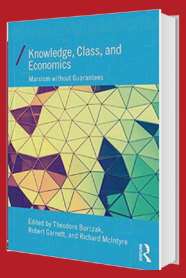

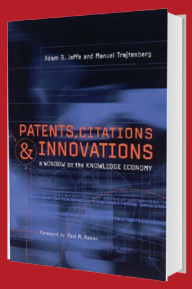

Patents, Citations, and Innovations
A Window on the Knowledge Economy.

By Adam B. Jaffe, Manuel Trajtenberg, and Paul M. Romer. 2005. 2017.

قراءة ممتعة

ص.ب: 214444
دبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 3444 423 04
نستقبل آراءكم على pr@mbrf.ae

تواصلوا معنا على

MBRF_News
MBRF_News
mbrf.ae
www.mbrf.ae

qindeel_uae
qindeel_uae
qindeel.uae
qindeel.ae

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution

مبادرات محمد بن راشد آل مكتوم العالمية
Mohammed Bin Rashid
Al Maktoum Global Initiatives

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM
KNOWLEDGE FOUNDATION

بالعربي
إحدى مبادرات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

مبادرة #بالعربي

أطلقتها مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة بهدف تشجيع الجمهور العربي على استخدام لغتهم الأم عبر قنوات التواصل الاجتماعي، واستعادة المكانة الرائدة للغة العربية كلغة عالمية، وتعزيز حضورها في وسائل الإعلام المختلفة.

تزامناً مع الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية، شارِكْ في فعاليات مبادرة بالعربي المقامة في معظم مراكز التسوق بالدولة في الفترة من 14 إلى 18 ديسمبر 2018.

bilarabi.mbrf bilarabi_mbrf bilarabi_mbrf bilarabi_mbrf bilarabi-mbrf bilarabi_mbrf bilarabi.mbrf